العجوز والكلب الوفي..

يسع بيتنا العديد من البشر، تتلاقى فيه الأجيال، وتتجمّع الأُسر، يقطن فيه أبي وأعمامي الأربعة وزوجاتهم وأبناؤهم، يترأس ذلك الحشد الكبير جدّي الذي كان مشغولًا طوال الوقت بتجارته، تُعينه على ذلك المنصب جدَّتي تلك المرأة الحازمة، كانت -في الحقيقة- طيبةَ القلبِ، غير أنَّها تُظهر العكس، ربما منصبها وسط تلك العائلة الممتدة يتطلب ذلك الحزم، تُدير هذا البيت الكبير وتقضي بين نسائه بمهارةٍ تحسدنها عليها جاراتها العجائز، حين يأتين لزيارتها ترى الغيرة تملأ قلوبهن، وعيونهن تتساءل: كيف استطاعت تلك العجوز أن تجمع أبناءها -الذين أصبحوا رجالًا وأنجبوا الطفل والاثنين والثلاثة- حولها دون سخطٍ أو خلافات بين زوجات الأبناء، كتلك التي تملأ البيوت؟!

تضيق جدتي كثيرًا بانشغال جدّي بالتجارة، ترى أن السن قد تقدّم به، ويجب عليه أن يترك تلك المَهمَّة لأبنائه، غير أن جدّي -الرّجل الشديد العنيد- لم يعترف بذلك يومًا، وقد كان محقًا، فهو رجل قوي ترى فيه -على كبر سنه- من نشاط الشباب وحيويته، ما لا تراه في شباب هذه الأيام.

كذلك لدى جدتي رغبة تزعج جدي وتثير غضبه، طالما تنازعا بسببها، وهي تربية الكلاب، وجود الكلب في البيت سبب كافٍ لسعادتها، بينما لا يطيق جدّي ذلك ولا يقبله، فكلما اشترتْ جدّتي كلبًا صغيرًا لتربيته، غضب جدّي وتخلّص منه، حتى عزمت -ذات يوم- على أن تفعل ذلك دون علمه، ابتاعت واحدًا، وضعته في غرفة متطرفة في حوش البيت، ولمّا كان جدّي كثير

الانشغال، قليل التواجد في البيت، نجحت خُطَّتها، واستمر وجود الكلبِ في البيت شهرين كامِلين دون أن يعلم جدّي عنه شيئًا.

كانت فرحة جدّتي بذلك الكائن الصغير تدعو للدهشة، تتعامل معه كالابن الرضيع، تضع له الطعام بكرم الأم الحنون التي تتفنن في إعداد صنوف الطعام لابنها العائد من سفر. بينما زوجات أبنائها لا يروقهنّ ذلك أبدًا، اهتمام جدّتي بالكلب يبدو لهن شيئًا غريبًا مستنكرًا.

أتى اليوم الذي تعلم جدّتي يقينًا أنه آتٍ لا محالة، يوم أن علم جدّي بوجود ذلك الكائن المنبوذ، غضب وصمّم على طرده من الدار، في الصباح حمل أخي الكلب في جِوال -استجابة لأمر جدي- ورماه بعيدًا عن البيت ثم رجع، فإذا بنا في المساء نسمع صوت شيء يداعب باب البيت، بدا وكأنه يحزّه حزًّا، كان ذلك كلب الجدة قد عاد وحده إلى البيت بعد أن طُرِد صباحًا.

ثار جدّي، ولم يلتفت إلى لهفة زوجته، وفرحتها بعودة ضيفها المطرود، كمن فَرِحت بعودة حبيب بعد طول غياب، أصرّ على التخلص منه، ولكن هذه المرة سيفعل ذلك بنفسه.

في الصباح، كان جدي ذاهبًا إلى السوق، فاختار طريقًا غير تلك التي اعتادها كل أسبوع؛ لينفّذ خُطّته في التخلص من ذلك المتطفل، مرّ بدابته عبر طريقٍ جبلي وانتظر حتى ابتعد عن البيت مسافة كافية، ورمى الكلب، ثم أكمل طريقه نحو السوق.

غير أن ما حدث في المرة الأولى تكرر ثانية، وعاد الكلب الذي أضحى يحفظ طريق البيت جيدًا، كمغترب لم ينسَ موطنه..!

وكرّر جدّي ما فعله مرة ومرة، وفي كل مرة.. يعود الكلب إلى البيت، وتفرح جدّتي بعودته، ويصرّ جدّي على طرده، حتى

كانت آخر مرة حاول جدّي ذلك، عاد الكلب في تلك المرة، ثار جدّي وغضب كما يفعل في كل مرة، وتوعّد بطرده، إلا أنه انشغل عن ذلك فمرّ يوم.. ويوم.. وأسبوع وشهر، وفي كل يوم يقول جدّي إنه سيتخلص منه، مرت الأيام، ونسي جدّي أمر الكلب، ولم يعد يلتفت إليه، فسعدت جدتي بذلك كثيرًا.

عاش الكلب في البيت زمنًا يلقى من اهتمام جدّتي ورعايتها ما لا يلقاه أحد، فاعتدت كما اعتاد الأحفاد جميعًا على اللعب معه، حتى صار مسلّمًا بوجوده، كان ذلك الكلب الأبيض ذو النقط السوداء كلبًا عاديًا، كتلك التي تملأ الشوارع، غير أن اهتمام الجدة وعنايتها به إلى جانب لونه الجميل المميَّز الذي جعله قريب الشبه بتلك الكلاب التي يُربِّيها الأثرياء المُترفين زاد من جاذبيته، فأضحى محببًا لنا لا يصرفنا عنه سوى صراخ الأمهات وتحذيرهن، كذلك كان زوّار بيتنا الكبير يُطِيلون النظر إليه خلسة أو جهرة، وهو يتمسّح في قدمي سيدته العجوز الذي كان كثير السير خلفها -حتى أصبح كل منهما مرتبطًا أمام الناس بالآخر-، إلا في وجود جدي؛ لأن جدتي -الزوجة العاقلة الذكية- تتَّقي غضبه بأن تقلل من رؤيته للكلب قدر المستطاع.

مَرِضت جدتي -ذات يوم- فأحضرنا الطبيب الذي أمر بتوفير الرَّاحة التامة لها وعدم إرهاقها، فلم تعد تقوى على إدارة شؤون البيت الكبير، سرعان ما دبَّ الخلاف بين السلائف، أصبحن بالكاد يدبّرن شؤون البيت، بل كان ذلك يُعجزهن أحيانًا عندما ينخرطن في الخلافات والمشاحنات التي طفت واضحة على السّطح، فترى العجائز حين يأتين لعيادة جدتي يمصمصن الشفاه أسفًا على حال تلك العجوز التي لم تعد كسابق عهدها.

كنَّا نسمع نباح كلب الجدة في غرفته طوال فترة مرضها، أذكر مرة أنني أطلقت سراحه، فأخذ يجوب المكان، حتى وصل إلى غرفة جدتي التي تجلس على الكرسي، تتناول طعامًا أعدته لها أمي، فارتمى الكلب تحت قدميها بشوق كحبيب عائد لتوّه من سفر طويل، ثم رأيناه بعد ذلك باسطًا ذراعيه أمام غرفتها، كمن يحرس كنزًا يخشى ضياعه، يراه جدّي فيكظم غيظه مراعاة لحال زوجته المريضة.

ترك الكلب بيتنا هذا الصباح باختياره، دون أن يرسله أحد، غير أنّ ذهابه هذه المرة كان بلا عودة، بعد وفاة من كان يعود لأجلها مرة ومرة.